

منهج عبد القاهر الجرجاني في البحث البلاغي

د.فاطمة صغير



جامعة تلمسان

Abstact:

Arabic rhetoric took place in the era of authorship on the tongues of the literature's people. As consequence, mixing with other races, Arabs take the melody to creep tongues, for this scientists rushed to put the rules in order to preserve language.

One of them is Abdul El Kaher el jerjani who claimed the following methods of Arabic and reveals their secrets and investigates citizen completions, where and took the koran and the words of Arabs to the floor of this study, which translated into an approach of its own.

Finally, this research reveals its own curriculum.

ملخص:

جرت البلاغة العربية، قبل عصر التأليف، على ألسنة أهل الأدب، فطرة وسليقة، إذ نرى أوجهها ماثلة، فيما أبدعوه، من شعر ونثر. ونتيجة إختلاط العرب بغيرهم من الأجناس، أخذ اللحن يدب إلى الألسنة، فسارع علماء العربية، إلى وضع القواعد، والأصول، حفاظا على اللسان العربي من الفساد. وكان الإمام عبد القاهر الجرجاني واحدا من الأعلام الذين إنبروا لتلك المهمة النبيلة، حيث راح يتتبع أساليب العربية، يكشف أسرارها، ويتقصى مواطن الجمال فيها، متخذ النص القرآني، وكلام العرب، أرضية لدراساته التي نجدها تترجم منهاجا خاصا به، في عملية البحث. والبحث هاهنا، يحاول الكشف عن بعض خصائص منهجه، في التأصيل البلاغي.

المقال:

البحث نشاط فكري، غايته الاطلاع على المعلومات، واكتشاف الخبرات كما أنه تنقيب عن الأفكار، بهدف دراستها وإثرائها، من أجل بلورتها في شكل نظريات أو قانون. وكما هو معلوم، فإن مجالات البحث، عديدة، ومتشعبة، ذلك لأن ميادين المعرفة كثيرة، وغزيرة، ولهذا فإن الباحث، قبل أن يخوض غمار البحث، مطالب بالتسلح له، ذلك لأنه ليس مجرد مادة علمية، تُعرض

نتائجها، وإثما هو أيضا منهج، يعتمد الباحث خصائصه؛ ليحقق التنظيم الصحيح، والتنسيق الدقيق ليصل في الأخير إلى أفضل النتائج.

والحقيقة أنّ مناهج البحث، تتعدد، وتختلف، وعلى الباحث أن يُحسن انتقاء الذي يناسب موضوع دراسته، كما يتوجب عليه الإلمام، بتقنيات المنهج الذي سيطبقه، علما أنّ البحث في الكثير من الأحيان، يفرض على الباحث، ما يلائم طبيعته⁽¹⁾.

إنّ مناهج البحث، التي لم يكتمل نضجها، ولم تتأصل قواعدها إلّا في العصر الحديث، نجد بعض تقنياتها، مستخدمة من قبل الدارسين العرب قديما. فمنذ أن تحرّكت عجلة البحث، والدراسة خلال العصر العباسي، راح الدارس العربي يضع المصنفات، ويتناول القضايا، والمسائل اللغوية والأدبية، معتمدا نهجا يراه مناسبا لدراسته.

ومن الحقول اللغوية، التي تنوعت فيها طرق البحث، والدراسة، البلاغة العربية، التي نشأت، وترعرعت في كنف الدراسات القرآنية، بدليل وجود العديد من مباحثها في كتب، ألّفت بشأن القرآن الكريم مثل: معاني القرآن للقرّاء (ت207هـ)، ومجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت209هـ) ونظم القرآن للجاحظ (ت255هـ)⁽²⁾.

إنّ هذه المؤلفات التي رآها النقد الحديث، تفتقر إلى المنهج العلمي، قدّمت آراء، وملاحظات قيّمة، بشأن الأساليب البلاغية، التي يتضمنها النص القرآني، وهي الملاحظات التي ارتكز عليها المصنفون اللاحقون⁽³⁾.

وبالبلاغة العربية، لم تتصل بالدراسات القرآنية وحدها، بل نجدها حاضرة أيضا في أبحاث الأدباء، واللّغويين، والنقاد، حيث عرضت كتب هؤلاء، الكثير من قضايا البلاغة، ومباحثها، على نحو ما نراه في كتب الجاحظ، وفي مقدّماتها كتابي البيان والتبيين، والحيوان، اللّذين يكشفان، منهج صاحبهما في التصنيف فهو ذلك: المعلّم، المحاضر، صاحب النزعة الأدبية، الذي يميل إلى الاستطراد والتّفكّه أثناء عرض المادّة، إذ ترد على يده، ثرية، وزاخرة بشتّى ألوان المعرفة. ويبدو أنّ الرّجل، يتقصد هذه الطريقة في التّأليف، حيث يقول في كتابه الحيوان "إنّي أوشح هذا الكتاب، بنوادر من ضروب الشّعْر، وضروب الأحاديث، ليخرج قارئه، من باب إلى باب، ومن شكل إلى شكل، فإنّي رأيت الأسماع تملّ الأصوات المطربة، والأغاني الحسنة، والأوتار الفصيحة إذا طال عليها ذلك"⁽⁴⁾ وهو إلى جانب ذلك، يعلّل لنا النهج الذي يسلكه، في وضع مؤلفاته، وكأنّه كان يعلم بالمؤاخذات، التي سوف تكون، بشأن منهجه ذاك⁽⁵⁾.

ومن المصنفات اللّغوية التي تناولت شؤون البلاغة، كتاب الكامل لأبي العباس المبرّد (ت285هـ)، حيث عرض فيه بشيء من التّفصيل، مباحث البيان، وعلى رأسها أسلوب التّشبيه⁽⁶⁾.

أمّا الكتب النقدية، التي اتّخذت فيها مسائل البلاغة، مقاييس للنقد، فتتلخص في كتاب نقد الشعر لقدامه بن جعفر (ت337هـ)، والموازنة بين الطائنين للآمدي

(ت 371هـ) والوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني (ت 392هـ). علما أن هذه المصنفات، وُضِعَت بدافع الخصومة بين أنصار القديم، وأنصار الحديث، وكذلك، بسبب المعارضة القويّة، التي اشتدّت بين المعجبين بشعر المتنبي، والمعارضين له. مما يُثبِت أنّ أصحابها لم يقصدوا بها خدمة البلاغة لذاتها، بل أرادوها وسيلة، تُعينهم على كشف الحقائق الأدبية، تمهيدا لإصدار الأحكام⁽⁷⁾. وهذه النية، نراها قد لعبت، دورا كبيرا في عدم تبني مصنفي هذه الكتب، منهاجا واضحا، في تناولهم للمادة البلاغية. والحقيقة أنّ الصّراع بين القديم، والحديث، عاد على البلاغة، بالجهود المثمرة، حيث شهدت بادرة علمية، خالصة، تمثلت في كتاب البديع لعبد الله بن المعتز (ت 296هـ) الذي إنبرى، يفنّد مزاعم المحدثين، حين قالوا بأسبقيتهم في اختراع البديع، مبينا وجوده في الشعر العربي القديم، وفي القرآن الكريم، والحديث الشريف.

فابن المعتز، بهذا الصنيع، يصبح أوّل من عمد إلى التصنيف البلاغي، كما أنّ كتابه يمثل أوّل مؤلف، حوى بعض فنون البلاغة، دون أن تختلط بغيرها من العلوم وعمله يعكس عمل الشاعر العربي، صاحب الذّوق الأصيل، والنزعة العربية الخالصة، ويتجلى ذلك بوضوح، في طبيعة الأمثلة، والشواهد، التي يعتمد عليها في تفصيله لفنون البديع، علما أنه يحرص على التنوع فيها، كما يعتني بعرض المفاهيم، والتّعريفات لمسائل البديع، مستقيا إياها من بعض الدّارسين العرب كـ الخليل بن أحمد الفراهيدي⁽⁸⁾.

ومّا لا شكّ فيه، أنّ ابن المعتز، فاق غيره من المؤلّفين، الذين تناولوا البلاغة في مؤلفاتهم؛ لأنه جمع فنون البديع، معتنيا بالتنظيم، والتّبويب وهو الأمر المفقود، في المصنفات السابقة، التي انشغلت بكشف أصول البلاغة وعناصرها المختلفة.

إن استقلال علم البديع، على يد عبد الله بن المعتز، فسح المجال، واسعا لعلماء آخرين عملوا على تطويره، وإنمائه تدريجيا، إلى أن اكتملت فنونه الأساسية.

وتوالى الجهود، جيلا بعد جيل، بهدف بلورة مسائل البلاغة، فتحققت خطوات إيجابية، خلال القرن الرابع الهجري، على يد ذوي الاختصاص الذين تأكّد لديهم، عدم فعالية، وجدوى التعميم غير العلمي، وبذلك توفرت الأرضية الصحيحة لأصحاب البصيرة، والعقول النافذة، كي يشرعوا في إعداد الدّراسات الرّاشدة، والنّاضجة.

وكان من جملة هؤلاء، إمام الأشاعرة، وشيخ البلاغة: عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ)، صاحب التصانيف النحوية، غير أن شهرته، طارت في سماء البلاغة التي خصّها بـ: دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، والرّسالة الشافية في إعجاز القرآن وقد وضع هذه العناوين، مدفوعا بالبحث في قضية الإعجاز التي أثّرت الدّرس البلاغي، وأغنته بالعديد من المؤلّفات⁽⁹⁾.

إنّ نظرة إمام البلاغة إلى قضية الإعجاز، تختلف عن بقية الدارسين لها؛ ذلك لأنه حصر إعجاز القرآن الكريم في النّظم الذي يريد به: تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض⁽¹⁰⁾.

وإذا كان بعض الباحثين، قد اهتموا إلى فكرة إعجاز القرآن الكريم بالنظم، فإنّ المزيّة عند عبد القاهر الجرجاني، تعود إلى جعله أساليب البلاغة، محورا، لتطبيق آرائه، ومفاهيمه بشأن النظم.

والظاهر أنّ تميز الرجل، عن غيره من الباحثين، لا يكمن فقط في الآراء والأفكار التي درسها، بل في الطريقة، والمنهج المعتمد، في الدراسة أيضا. علما أنّه لا يصحّح في مؤلفاته، بطبيعة المنهج، الذي يرتضيه، وكلّ ما نجده بخصوص هذا الشأن، أنّه يعرض في كتابه أسرار البلاغة، النهج الذي سيسلكه في عرض مادته، حيث يقول: "واعلم أنّ الذي يوجبه ظاهر الأمر، وما يسبق إليه الذكر، أن نبدأ بجملة من القول في الحقيقة، والمجاز، ونتبع ذلك القول في التشبيه والتمثيل، ثم نسق ذكر الاستعارة عليهما، وأنّي بها في أثرهما، وذلك لأنّ المجاز أعمّ من الاستعارة، والواجب في قضايا المراتب، أن نبدأ بالعام قبل الخاص"⁽¹¹⁾.

إنّ دراسته لعلم البيان، قائمة على التنظيم، والترتيب المنطقي، حيث يبدأ بالعام قبل الخاص، وبالأصل قبل الفرع، دون أن يُهمل الشرح، والتقصي، إلى جانب خصائص كثيرة، نعتقد أنّها تمثل أسس المنهج التحليلي لديه.

لاشكّ أنّ المطلّع، على كتابات عبد القاهر الجرجاني، يقف بوضوح على تلك المناقشات الواسعة، والدقيقة لآراء السابقين، حيث جادل أبا هاشم الجبائي الذي أرجع الفصاحة إلى اللفظ أو المعنى، كما عارض منكري الإعجاز، وردّ على القائلين بالصّرفة، والجازمين بإمكانية معارضة القرآن الكريم، معتمدا البرهنة عن طريق عرض الأمثلة المناسبة، التي من شأنها، تثبت الفكرة، وتقوي الحجة، ومن ذلك: توضيحه أنّ اللفظة ليس لها صفة أدبية ذاتية.

ولأنّه يسعى في مؤلفاته، إلى تحقيق الفائدة الجمّة نراه، يسترسل في الشرح، والتفصيل، سواء تعلّق الأمر، بدراسة القضايا، من مثل: الإعجاز، والنظم أو يبحث أساليب علوم البلاغة. ولعلّه السبب، في ميله إلى التنويع والإكثار من الشواهد، والأمثلة، مستقيا إياها من مواطن البلاغة، المتمثلة أساسا في: القرآن الكريم، وكلام العرب شعره، ونثره.

لقد تناول إمام البلاغيين، مباحث علم البيان فدرس أسلوب التشبيه، مركزا دراسته على التشبيهات المركبة، إذ راح يحلل العديد منها، مظهرا قدرة هائلة، على الموازنة، والنقد، والتعليل، كما دلّ على قوة عجيبة في الفهم، وتدوق الأساليب العربية الرّاقية، فكشف بوضوح أسرار، وجمال الصّورة التشبيهية. ولم يقصر جهده، على التشبيه، بل تناول الاستعارة التي حلّل بشأنها، العديد من الأمثلة، مبينا دقائقها بحسّ مرهف، وبصيرة نافذة طبقا لقول الدكتور شوقي ضيف، حين راح يعرف بطريقته في معالجة أساليب البيان إذ قال: "ميّز أقسام البيان، وفروعها، وحلّل أمثلتها، تحليلا بارعا"⁽¹²⁾.

ويجمع الدارسون المحدثون، على أنّ مسلك إمام البلاغة، في تقصّيه مزايا الأساليب، والصّور، يقوم على أسس المنهج التحليلي، بالإضافة إلى آليات رآها مجدية، لاستخراج الأغراض الفنيّة لأساليب التعبير. ومن ذلك أنّه ينجح إلى البحث العميق، والاستقصاء الدقيق، بغية بيان الصّحيح من الفاسد والقوي من

الضعيف. وهو الأمر الذي جعل أبحاثه تتصف بالدراسة النقدية العملية، أكثر من كونها دراسة نظرية، قاعدية، بلاغية. يقول الدكتور بدوي طبانة "ولعل من الصواب، أن يقال إنَّ عبد القاهر الجرجاني، واضع أسس المنهج التحليلي في دراسة البيان، أو المعاني العقلية، ومسايرة العبارات لها، ودالاتها عليها"⁽¹³⁾.

واللافت للانتباه، اعتماد الرجل في مناقشاته، وتحليلاته، الجدل العقلي الذي يوحى بصلافة تفكيره المنطقي، حيث نراه، يقدم الفكرة التي يريد النظر إليها، ثم يتبع تلك التقدمة بالنص، ليأخذ بعد ذلك في تحليله تحليلًا، يضع اليد على مواطن الحسن، والجودة، أو مواطن الضعف، والنقص في ذلك النص، لينتهي في الأخير إلى استخلاص القواعد، التي ستكون بمثابة القوانين الضابطة لصياغة الكلام، وسبكه.

ولا ينبغي التوهم بأنه بذلك العمل، يهمل الذوق الأدبي، بل على العكس تمامًا، فهو يحلل المسائل، ويتناول الكلّيات، والجزئيات، مشيرًا إلى مكان الشعور، فيحرك الذوق، والحاسة الفنية، مما حمل أحد الدارسين على القول: "لا يكتفي بهذا الجدل العقلي، وإنما يقرن إليه الذوق الفني، البالغ الرهافة، حيث يعتمد إلى تحليل الآية، تحليلًا فنيًا بارعا، يكشف عن مدى رهافة حاسته الأدبية، ونفاذها من ناحية، وعن مدى سعة ثقافته اللغوية، وعمقها من ناحية أخرى"⁽¹⁴⁾.

والحقيقة، أنّ منهج الإمام هذا، يبرز بقوة في كتابه دلائل الإعجاز، الذي يعكس، اكتمال ثقافة الجرجاني، وبيّن مهارته في دراسة علوم العربية، دراسة شاملة، تأخذ بالقضايا اللغوية، والنحوية، والبلاغية والنقدية، على أنّها كتلة واحدة، وهيئة متكاملة.

لقد تناول شتى أساليب العربية، من حذف وذكر، وفصل ووصل، وتقديم وتأخير، فوضّح قيمتها البلاغية، وكشف وظيفتها الكلامية من خلال تحليله للعديد من الشواهد القرآنية، والشعرية، فوقف بدقّة على جمالها الفني. ويبدو أنّه استثمر علم النحو، وطبّق قوانينه ببراعة، ولهذا نراه يذكر صورًا مختلفة للأسلوب الواحد، ففي دراسته للخبر، يورد مختلف العبارات من مثل: زيد منطلق، زيد ينطلق، ينطلق زيد، منطلق زيد، ليكشف الوجوه المختلفة في التعبير، ويحدّد دلالة كلّ وجه. ولتلك الغاية أيضًا، نجده يُقارن بين الصيغ المختلفة في الأسلوب الواحد، ليبين أقواها دلالة. ومن ذلك مقارنته بين قول القائل: زيد المنطلق، والمنطلق زيد، فيخلص إلى أنّ عبارة: المنطلق زيد، أقوى في أسلوب القصّر، لأنّ المنطلق فيها أعم، والألف واللام لاستغراق الجنس.

وبهذا يكون صاحب الأسرار، أوّل من وضع، أصول علم المعاني، وتناول فصوله، بطريقة دقيقة، جمع فيها بين العلم، والعمل. فالعلم يكمن في القواعد الكلية، بينما العمل، يتحدد في ضربه للشواهد، والأمثلة، وتحليلها تحليلًا وافيًا، جعل مؤلفاته، تفوق معظم ما وُضع في علم البلاغة.

فالكتب التي ظهرت بعده، اقتصرّت على سرد القواعد، بعبارات اصطلاحية، تأبأها بلاغة الأساليب العربية؛ لأنّها لا تذكر من الشواهد، والأمثلة إلّا القليل النادر، الذي أدلى به السّابق إلى اللاحق، ولهذا رأى الدكتور إحسان عباس أنّ كتبه، من أدقّ ما ألف في اللغة العربية لكونها تتضمن التفسيرات الجمالية، الدالة على الذوق النقدي الأصيل⁽¹⁵⁾.

وكم كان سيكون مجديا، لو اتّبع اللاحقون، منهج عبد القاهر الجرجاني في وضع مصنفاتهم، غير أنّهم جرّدوا البلاغة من تلك المسحة الجمالية التي أضفاها عليها إمامها، وتسارعوا نحو القوالب، والقواعد، يضعونها بصرامة، دون مراعاة إحساس وذوق الناقد الأصيل.

هوامش الدراسة:

- (1) - البحث العلمي: مناهجه وتقنياته، محمد زيان عمر، ص: 48.
- (2) - الموجز في تاريخ البلاغة، مازن المبارك، ص: 38.
- (3) - المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني، أحمد جمال العمري، ص: 39-50.
- (4) - الحيوان، أبو عثمان الجاحظ، ج 1، ص: 37.
- (5) - المصدر نفسه، ص: 37.
- (6) - الكامل في اللغة والأدب، أبو العباس المبرّد، ص: 33.
- (7) - تاريخ البلاغة العربية، عبد العزيز عتيق، ص: 181.
- (8) - البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ص: 71.
- (9) - ينظر المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز، أحمد جمال العمري، ص: 200.
- (10) - دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص: 03.
- (11) - أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ج 1، ص: 117.
- (12) - البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ص: 190.
- (13) - البيان العربي: بدوي طبانة، ص: 178.
- (14) - المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز، أحمد جمال العمري، ص: 213.
- (15) - تاريخ النقد الأدبي عند العرب، من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، إحسان عباس، ص: 429.

